

أحمد دلباني معانياً عناصر التخلف الشرقي

في كتابه «مفاتيح طروادة: كتابات في أزمة الهويات المغلقة» (دار التكوين- دمشق)، يطرح الباحث الجزائري أكثر الأسئلة الراهنة إشكالية على راسها الإرهاب والتطرف والإسلاموفوبيا

خليل صويلح

يلامس أحمد دلباني في كتابه «مفاتيح طروادة: كتابات في أزمة الهويات المغلقة» (دار التكوين- دمشق) أكثر الأسئلة الراهنة إشكالية، في محاولة جديّة لتشريح تضاريس الجغرافيات المريضة، واكتشاف مكن العلة التي يجدها في «الانغلاق الهوياتي» من جهة، وأقول ميراث عصر الأنوار الأوروبي من جهة ثانية. وإذا بحصان طروادة يتخذ ألقنة متعددة بقصد «احتكار معنى التاريخ». أسئلة الإرهاب والتطرف والإسلاموفوبيا، وفقاً لما يراه هذا الباحث الجزائري، أتت بقوة الهيمنة في المقام الأول، وتالياً فإن ما نعيشه اليوم من أحوال العنف هو نتيجة وليس سبباً «يتحكّم بخيوط الفوضى التي تصنع تراجيديا العالم». بعدسة مكثرة، يفحص صاحب «قداس السقوط» عناصر التخلف الشرقي بدءاً من مفهوم الحرية بمعناها المعاصر، فهي على وجه العموم نبذة غريبة في تراب الموروث العربي، مما عزّز فكرة الاستبداد بوصفها سلاحاً في مواجهة الفتن، ونوعاً من «اللاهوت السياسي». وبهذا المعنى، ظلت الحرية في الدساتير العربية «أداة حضور محتشم»، وهو ما غيب فكرة المواطنة وحقوق الفرد وواجباته والتعددية الحزبية لمصلحة شرعية الإخضاع هرمياً. وحتى حين تمكّنت «ثورات الربيع

العربي» من إزاحة المستبد، لم تستطع أن تدشن عهداً مختلفاً في ما يتعلّق بمسائل الحقوق والحريات والدولة المدنية، إذ خرج «مارد الأصولية» من قمقمه، ناسفاً أي مسعى للديمقراطية، ومرتبياً «عباءة المقدّس» في مواجهة خطر التغيير. لم تسقط الجدران العربية إذ، كما سقط جدار برلين، إيذاناً بنهاية «العقائد المتصلبة». ذلك أن الجدران العربية استعادت حروب الماضي وذكريات الصراع الدموي على السلطة «بعيداً عن القراءات التفكيكية المحرّرة من ثقل الذاكرة الطائفية»، فانحصرت «مدينة الله» على «مدينة الإنسان»، مما أعاق أي ثورة معرفية لتقويض «دولة الوصاية» في غياب «احتجاجات العقل النقدي». هكذا تبدو «بلاغة الراهن» ترجيعاً لأوجاع قديمة نائمة منذ القرون الوسطى، وكان جرعة الحداثة، وأسئلة النهضة اللذين رافقتا مرحلة ما بعد الاستقلال، مجرد مسكن مؤقت للأورام المقيمة في العمق. وهذا ما يؤكده الدلباني في «كتاب المخاطبات»، قبل أن يشير إلى «هزيمة الثقافة الحديثة» أمام موجة التطرف التي شكّلت علامة اختلال صريحة في بنية التفكير العربي. إذ تسللت إلى حياتنا من «الشقوق والتصدّعات في جدران مدينتنا الحديثة». وما تنامي مقولة الهوية وانفجار الأصوليات بأنواعها إلا صورة تدشينية في



ينبّه إلى
معضلة
أخرى
منسية
هي
مشكلة
القمع
الجسدي
والحرية
الجنسية

في عالم يشعر فيه باليتم من أبوة التاريخ، من هنا يبدو أن استثمار الذاكرة على جانبي المتوسطي أتى لتعزيز «استراتيجية الهيمنة» أولاً، وإقصاء الآخر من دون مراجعة عقلانية ثانياً، نظراً لانشغال الغرب الأوروبي بهويته الحضارية المهذبة من قبل «المتوحش الدموي» وتحصينها بقوة الميديا المضادة لتبرير السيطرة الاستعمارية. ولكن كيف تعامل المثقف العربي مع الميديا الوافدة؟ يجيب صاحب «رمل اليقين» بأن العولمة قدّمت هدية ثمينة إلى الدول الوطنية في صورة «حصان طروادة» أتاح اختراق

العودة إلى «أساطير البدايات السعيدة» باعتبارها ملجأً للذات الخائبة. المعضلة الراهنة، وفقاً لفصول هذا الكتاب، تتمثل في تشويه صورة الآخر عن طريق تحويلها إلى «فراغ في الفضاء العام» سواء عن طريق «الإسلاموفوبيا» أوروبياً، أم لجهة عدم قدرة المجتمع العربي والإسلامي عموماً الانخراط بفعالية في خُلقه رواسب «البنيات البطريركية وثقافتها القائمة على الإخضاع وهيمنة الذكورة»، ذلك أن «نرسيس» المسلم لا يلجأ اليوم إلى مرآة الماضي إلا كي يعيش العزاء

القلع الحصينة إيديولوجياً وأمنياً، عبر فضاء افتراضي لا يخضع للأنظمة المعرفية المغلقة أو رقابة السلطة، على أن مساحة الحرية هذه، أزاحت المثقف النقدي جانباً لمصلحة المثقف النجم واستدرجه - بعد ترويض خطابه- نحو واجهة السلطة ومراكز القرار وجماعات الضغط لتبرير أفعالها بقوة الشرعية الأدبية والتاريخية والأخلاقية. لن نستغرب أن يصعد إلى الواجهة فيلسوف مدجّن مثل برنار هنري ليفي، أو أن يتخلّى ريجيس دوبريه عن خطابه الكوني ملتفتاً إلى «مديح الحدود»، وفقاً لعنوان أحد كتبه، فيما يغيب المفكر العربي الرصين في صناعة خطاب يحطم الصورة النمطية عن العربي أو المسلم، مثلما ستغيب صورته عن تمثيل الهامش بالمقارنة مع دفاعه عن شرعية المركز، متخلياً عن «وجاهة المعنى داخل أتون الفوضى الكونية». كما أنه لم يتمكن من حماية «مدينة الإنسان» من عودة البرابرة الجدد. من ضفة أخرى، ينبّه أحمد دلباني إلى معضلة أخرى ما زالت خارج اهتمام التفكير العربي، وهي مشكلة القمع الجسدي والحرية الجنسية، إذ «ظل الجسد يناوّه في دهاليز النسيان، ويعاني من الاستبعاد القسري من دائرة المشكلات الحيوية للفرد والمجتمع»، ما جعل الشباب العربي المكبوت والنائه يلجأ إلى المواقع الإباحية التي حولها الغرب إلى تجارة تستثمر في «بؤس المقموعين» في مجتمعات لم تصنع أحداثها الخاصة، وإنما كرسّت «ثقافة الاحتراس من الخطيئة» في غياب خطاب «فرويد عربي» يزعزع ثبات الثمرة المحرمة من جذورها الصلبة.

مقالات

هاني فحص... العابر للطوائف

جمال جبران

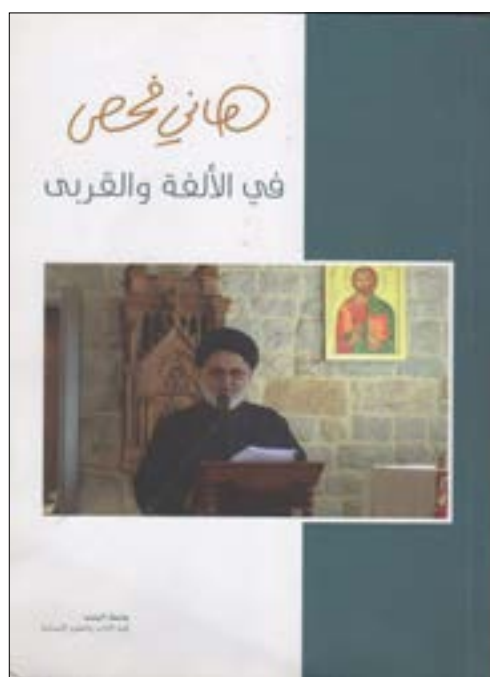
في المقدمة التي افتتح بها كتاب «هاني فحص- في الألفة والقربى» (جامعة البلمند - كلية الآداب والعلوم الإنسانية)، يحرص الأب جورج مسّوح على إعادة التذكير بحقيقة أنه «قلماً اجتمع اللبنانيون من كل الطوائف، الشباب منهم بخاصة على تقدير أحد رجال الدين كما اجتمعوا على محبة السيّد هاني فحص». معادلة نجح في تحقيقها ذلك «العابر للطوائف»، رغم تلك السهولة التي يمتلكها أي رجل دين في أبناء ملّته، إلا أنه من العسير عليه أن يحصل على «إجماع كل المواطنين، مسلمين ومسيحيين وغير متدينين».

هكذا يمكن فهم إصرار «السيّد هاني فحص» (1946 - 2014)، على اختيار «مركز الدراسات المسيحية الإسلامية» في «جامعة البلمند» كي ينشر فيها مجموعة مقالات أطلق عليها صفة «الأرثوذكسية»، وهي التي تصدر اليوم عن الجامعة نفسها. أطلق الراحل صفة «الأرثوذكسية» على مقالاته لأن ما يجمع بينها هو «رجال دين ومفكرون وكتاب أرثوذكس يتناول السيّد هاني فكرهم بالعرض والنقاش والتحليل والتقريب». كما أنها مقالات تاتي على السياق نفسه الذي سار عليه فحص «داعية للاعتدال ليس في أوساط مذهبه فحسب، بل كان يحث الجميع على

انتهاج سبيل الاعتدال»، هو الذي قال في حياته «هويتنا تحدّدنا نظرة الآخر إلينا، وتشكلها أيضاً». وعليه فلا يجوز «أن نغفل نظرة الآخر المختلف إلينا، فالآخر ثراء لنا وقيمة مضافة» بحسب الأب مسّوح الذي يضيف: «هاني فحص الودود، الدمث، الصادق، الصريح، الثائر، المشاكس، المنفعل... ليكن ذكره مؤيداً».

بهذه المحبة يفتتح هذا الكتاب كمعبر مناسب للدخول في المقالات التي حوّاها وهي تبدو مؤسسة على المحبة ذاتها والمكنوزة في قلب صاحبها. هكذا نجد المقال الأول «البشارة كفعل خالص» واعتراف فحص بأنه لم يذق حلاوة الإسلام والتشيع «كما ذقتها بعدما شرعت في المناولة الروحية وإثر قراءة النص المسيحي ومعاناة الشخص للمحبة المسيحية». من هنا يمكن قراءة المقالات التالية التي خصها فحص للحديث عن البطريرك أغناطيوس الرابع هزيم «عناق الأفكار والقيم في مقام وقامة بيزنطية». حكي عنه معترفاً وبتواضع «بعدما اقتربنا منه لم نحسده على نعمه وتنغمه بتواضعه وشفافيته وعلمه، كما نغبطه ونغار منه، فإذا ارتفع الحجاب، وجرى حديث القلوب، وجدناه يغار منا، لأننا نجد وقتاً للقراءة والكتابة أكثر منه».

وعن المطران جورج خضر، يكتب فحص مشيراً إلى «أيقونتنا الحية... ما أجمل وجهي في



وجهك»، سارحاً ومتأملاً حالته معه. فعندما تكون مع المطران جورج «أنت تقرّ لا تكتب، عندما تكتب نضك يصبح ما تكتبه وكأنه حرام عليك، يصبح مشاعاً». أمّا حين تقرّ نصاً «فإنه يقرأك كلما قرأته، يتلون بلحظتك، تجد فيه ذاتك... وهذا الرجل كتاب». وفي هذا الجزء المخصص للمطران خضر، جاء حوار أجرته مجموعة من طلائب «مدرسة القلبين الأقدسين» ليحكى فيه فحص

عن المطران والخبوط التي تجمع بينهما وقد كانت فرصة قال فحص فيها شاكراً الدعوة «التي تجعلني التقى نفسي التي أحبها». وقال: «أنا أناني لكن أنانيتي مهذبة لا تتحقق إلا بالآخر». في فصل «شهادات وكتب»، تأتي سيرة السيّد هاني حول الصحافي غسان تويني «القائمة القيمة أو لبنان الذي يسهر في النهار» والذي «أحاول أن أحبه أكثر مما أكتب فيه أو عنه».

وتواصل محبة هاني فحص سيرها لتصل محطة اليساري والطبيب المصري محبوب عمر الفلسطيني الهوى وعبر رسالة كان فحص قد كتبها له شاكياً «إذا لم ياتني الوجود أفنّده وأبتئس، يا محبوب ضع أذنك على صدري واعتني بقلبك وافرح، لتتيح لهذا القلب أن يعمل لمدة أطول، قلبك ليس لك، إنه مشاعنا الذي لا ينقسم». هذه الرسالة التي انجزها فحص بمقدمة تروي مناسبة كتابتها والطريقة التي أخذتها لتصل إلى القاهرة، تحكي قصته مع محبوب نفسه والمطرح التي وصل إليها معاً وعلاقتها بحركة «فتح» والقضية الفلسطينية «فأنا يا محبوب رجل الدين المسلم الشيعي أرجو أن تكون رفيقي في الجنة، لا من أجل الحور العين بل من أجل فلسطين».

أما في خاتمة الكتاب، فجاءت كلمة للمطران جورج خضر قدمت سابقاً في سياق احتفالية تكريمية لهاني فحص عام 2004. تصف الكلمة الطريقة التي يسير عليها فحص في حياته، فهو الذي «لا يضيره أن يمشي وحده أحياناً في هذه الحارة أو تلك لأنه يسعى دائماً مع الله».

أما عن كتابته فيقول المطران خضر: «نسكرني هذه اللغة ليس لجمالها ومتانتها وحسب، ولكن لأنها تحوي، تحت الأسلوب، السعي إلى الحقيقة في هدوئها وإلى النضال في قوّته».

مرور على
علاقته
بحركة
«فتح»
والقضية
الفلسطينية